﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرّعد: 12 - 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

مَن أنزل النِّعمَ قادرٌ على أن يجعلها نِقَمًا، كما أنَّ البرقَ خوفٌ وطمعٌ

لمّا أنذر الله سبحانه الجاحدين لآياته بإنزال ما لا مردَّ له من العذاب والهلاك؛ أتبع ذلك بذكر آيات عظيمات مبهرات، فيها دلائل قدرته تعالى وحكمته؛ فهي تشبه النِّعم والإحسان من وجوه، وتشبه العذاب والقهر من وجوه، وهي كذلك تبعث على الرَّهبة والتَّرقُّب، والخوف والطَّمع، والضَّراعة والارتجاف في سياق يُصوِّر سلطان الله المتفرِّد وحده بالعظمة والقهر[1]، فالمناسبةُ كامنةٌ في التَّمثيل الحسّيِّ بقصدِ الإنذارِ والتَّرهيب، والإطماع والتَّرغيب، فإنَّ الإنسانَ إذا تفكَّر في آياتِ الله القائمةِ الَّتي تجمع الخوفَ والطَّمعَ؛ فهو سيعلم أنَّ الَّذي أنزلَ النِّعم، هو القادر على إنزال النِّقم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾: البرق: لمعان السَّحاب وتلألؤه، ومعناه المحوريُّ: لمعان الشَّيء، وبرقت السَّماء: لمعت، وكلُّ شيءٍ يتلألأ، ويلمع؛ فهو بارقٌ[2].

2) ﴿وَيُنشِئُ﴾: الإنشاء: ابتداء الخلق وإحداث الشَّيء وابتداؤه، وأصله من ارتفاع الشَّيء وسُموِّه، ومنه: نشأ السَّحاب: ارتفع، وأنشأه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/20، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/363، وابن عادل، اللُّباب: 11/272، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/294، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/103.

(2) الجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (برق).

اللّه: رفعه، و"نشأ السَّحاب لحدوثه في الهواء، وتربيته شيئًا فشيئًا، قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾، والإنشاء: إيجاد الشَّيْءِ وتربيته"[1].

3) ﴿ٱلثِّقَالَ﴾: الثِّقل: ضدُّ الخفَّة، فهما متقابلان، "فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به، أو يُقدَّر به يُقال: ثقيل"، وهو واحد الأثقال، وهي الوزن.

ومعناه المحوريُّ: انجذاب الشَّيء المحمول إلى الأرض بقدر وزنه، والثِّقال: جمع ثقيل، وهو ما ترجَّح وزنه على خفَّته وازداد[2]، و"الثِّقل: كون الشَّيء أكثر كميَّة أجزاء من أمثاله، فالثِّقل أمر نسبيٌّ يختلف باختلاف أنواع الأجسام، فرُبَّ شيء يعدُّ ثقيلًا في نوعه، وهو خفيف بالنِّسبة لنوع آخر، والسَّحاب يكون ثقيلًا بمقدار ما في خِلاله من البخار"[3].

4) ﴿ٱلرَّعْدُ﴾: أُرعِد الرَّجل: أخذته الرِّعدة، وهي: نفضة ورجرجة تصيب الإنسان من فزع أو داء، ورجل رِعْديد: جبان، ورَعَد الرَّجل وبَرَق، وأرعد وأبرق: هدَّد وتوعَّد، ورعدت المرأة، وبرقت، وأرعدت: تحسَّنت، وتزيَّنت، وأصله من اضطراب الشَّيء وحركته، فكلُّ ما اضطرب؛ فقد ارتعد. ومنه: رعدت السَّماء، وأرعدت: ذاتُ رعدٍ، والرَّعد: صوت يُسمَع من السَّحاب[4].

5) ﴿خِيفَتِهِۦ﴾: الخوف: الذُّعر والفزع، وهو توقُّع المكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ومعناه المحوريُّ يدور حول معنى الذُّعر والفزع، ومنه الخيفة: بمعنى: الحالة الَّتي يكون عليها الإنسان من الخوف[5].

6) ﴿ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: صعِق الإنسانُ صَعْقًا وصَعَقًا: غُشي عليه من صوت يسمعه، وأصله من شدَّة الصَّوت، ومنه الصّاعقة: وهي نار تسقط من السَّماء في رعد شديد.

والصّاعقة كذلك: الصَّوت الشَّديد يتساقط معه قطع نار يُغشى منه، وهي صيحة العذاب.

(1) الرّاغب، المفردات: (نشأ).
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثقل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رعد).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، المُجمَل، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).

وأصل الصّاعقة: الصَّوت الشَّديد في الجو، ثمَّ قد ينتج عنها نار فقط، أو عذاب، أو موت[1].

7) ﴿ٱلۡمِحَالِ﴾: المَحْل: الكَيد والمَكْر، مَحَل فلانٌ بفلان: إذا سعى به عند السُّلطان بالوشاية والمكر، ويدور حول أصلٍ واحد وهو: الوشاية والسِّعاية بالمكر والحيل، ومنه المِحال: الكيد، والتَّوصُّل للأمر المطلوب بالحيل، "ومنه قولهم: تمحَّل؛ إذا تحيَّل"، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾. "جعل جدالهم في اللّه جدال كيد؛ لأنَّهم يُبرزونه في صورة الاستفهام"، وهو شديد المِحال: لا يغلبونه، والمعنى: شديد الجدال؛ لقوَّة حجَّته[2].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يخبِر المولى تعالى أنَّه هو الَّذي يُسخِّر البرق؛ خوفًا للمسافر من أذاه ومشقَّته، وطمعًا للمُقيم يرجو بركته ومنفعته، وهو سبحانه مَن يُكوِّن السُّحب المملوءة بالأمطار، ويُقدِّسه كلُّ ما في الكون من الرَّعد والملائكة وكلُّ المخلوقات خضوعًا له وإذلالًا، وهو الَّذي يُنزِّل الصَّواعقَ المُدمِّرة نِقمةً يُهْلكُ بها مَنْ شاء، ومع هذه القُدْرة الخارقة والخضوع التّامّ له سبحانه، لا يزال هناك مَنْ يجادلون في وجود اللّه ووحدانيَّته، وهو تعالى شديد القوَّة والبطش والنَّكال[3].

يزجر الله عباده بالنِّعمة كما يزجر بالنِّقمة؛ فهو سبحانه البديع في خلقه، العظيم في صنعه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

عِلَّة الفَصْل في ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفًا وَطَمَعًا﴾ استئناف ابتدائيٌّ على أسلوب تعداد الحججِ الواحدة تلو الأخرى، فلأجل

تعداد الحُججِ المتماثلة؛ إظهارٌ لقدرة الله، وتحقيقٌ لشمول علمه

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صعق).

(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والمقاييس، وابن منظور، لسان العرب: (محل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/106.

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/486، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/378.

أسلوب التَّعداد - إذ كان كالتَّكرير - لم يعطف على جملة ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾.

وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة الله وعجيب صنعه، وفيه من المناسبة للإنذار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ أنَّه مثال لتصرُّف الله بالإنعام والانتقام في تصرُّف واحد مع تذكيرهم بالنِّعمة الَّتي هم فيها، وكلُّ ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾، فكانت هذه الجملة جديرةً بالاستقلال، وأنْ يُجاء بها مستأنفةً؛ لتكون مستقلَّة في عداد الجُمل المستقلَّة الواردة في غرض السّورة[1].

وهكذا نلحظ براعة الفصل دون الوصل في مجيء قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾، وقولِه جلَّ شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ هكذا من دون حرف النَّسَق؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ مُقَرِّرٌ لقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ من زيادة الإدماج المذكور تحقيقًا للعلم، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ﴾ مقرِّرٌ لما ضُمِّن من الدَّلالة على القدرة في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾، مع رعاية نمط التَّعديد على أسلوب: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرّحمن: 1 - 3]، وفي هذا ما يبهر الألباب، ويُظهِر للمتأمِّل في وجه الإعجاز التَّنزيليّ العجب العجاب[2].

نكتةُ البَدْء بضمير الفصل لا باسْمِ الجلالة:

افتُتِحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتَتَح به في الجُمل السّابقة، فجاءت على أسلوب مختلف؛ وذلك مراعاةٌ لكون هذه الجملة الكريمة مفرَّعةً عن أغراض الجُمل السّابقة؛ ذلك أنَّ

الجملُ المتفرِّعةُ عن جُمَلِ فواتحِ المقاصدِ تختلفُ في بنائها وأسلوبها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/103.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/115.

جُمَلَ فواتح الأغراض افتُتِحت بالاسم العَلَم الجليل، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرّعد: 2]، وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. أمّا جُمَلُ التَّفاريع؛ فافتُتِحت بالضَّمائر، كقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [الرّعد: 2]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرّعد: 3]، وقوله ﷻ: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ [الرّعد: 3][1].

بلاغة الاسم الموصول في الآية:

التَّعبير بالاسم الموصول في سياق التَّعظيم زيادةٌ في التَّعظيم

استعمال الاسم الموصول في هذا السياق - في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ - له دلالات بلاغيَّة لطيفة، منها:

أولًا: إفادة الاختصاص، فالاسمُ الموصول من المعارف، وقد وقع خبرًا للمبتدأ ﴿هُوَ﴾، أيْ: إنَّه (مُسنَد)، ومن المتقرَّر في علم المعاني: أنَّ في تعريف المُسنَد قصرًا له على المُسنَد إليه، والقصر هنا حقيقيٌّ[2]. وهذا ممّا يُفيد الاختصاص.

ثانيًا: وقوع الاسم الموصولِ خبرًا في مثل هذا السّياق قد أفاد مع الاختصاص شيئًا آخر تُغمِم به الصِّلة، وهو قصر مدلول الصِّلة عليه، وهذه الدَّلالة الهامسة تكمن في طبيعة التَّعريف بالصِّلة؛ لأنَّها لا بدَّ أن تكون أمرًا معروفًا، كما يقول النُّحاة، وتظهر هذه الإيماضة الجاذبة جليَّة عند تأمُّل مواقعها في الكتاب العزيز.

ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ نجد أنَّ التَّعريف بالصِّلة - فوق دلالته على الاختصاص - يشير إلى أنَّ أمر تلك القصَّة اللّافتة، والَّتي جذبت أنظاركم إلى محيط النَّظر فيها إنَّما فاعلها هو الله ﷻ، فإنَّ إراءة البرق، وإسماع الرَّعد، وتسبيح الملائكة؛ كلُّ هذا مقصور على الله ذي الجلال، فلا يُشاركه فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/103.
(2) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 304 - 305.

أحد، ولا يُنازعه منازعٌ على الأبد، ولو حُذف الموصول في ذلك، ونُقلت الجملة من وضعها، أيّ: كونها صلة لها هذه الخصوصيَّة إلى أن تكون خبرًا فحسب؛ لذهب هذا المعنى[1].

ثالثًا: الاسم الموصول مُفتقر بالضَّرورة إلى صلة تُفسِّره، طالبٌ إيّاها بشدَّة، وهذا الافتقار جعل ارتباطه بصِلته ارتباطًا تلازميًّا، ممّا يُضفي على التَّركيب ظلالًا من التَّوكيد تغيب بغيابه.

والصِّلات المذكورة في الآية هي قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾.

وهذه الصِّلات الأربع الَّتي وُصلت بها ﴿ٱلَّذِى﴾ تدلُّ على القدرة الباهرة، والتَّصرُّف التّامّ في العالم العُلويّ والسُّفليّ، فالمتَّصف بها ينبغي ألّا يُجادَل فيه، وأن يُعتَقَد ما هو عليه من الصِّفات العلويَّة[2].

رابعًا: اشتمال جملة الموصول على مجموعة من الأفعال المتعاطفة، بُجمَل فعليَّة لها متعلِّقات كلُّها داخلة في الإخبار عن الله تعالى، فهو الَّذي يُري عباده البَرق لا غيره، وهو الَّذي يُنشئ السَّحاب لا غيره، وهو الَّذي تسبِّحه الملائكة لا غيره.

والاسم الموصول جاء في سياق التَّعظيم، فزاد من تعظيمه، وتبيَّن لنا إلى أيّ مدًى كان التَّعبير بالموصول في هذا السياق بديعًا بليغًا.

نكتة التَّعبير بالمضارع في ﴿يُرِيكُمُ﴾:

أفاد التَّعبير بالفعل المضارع تجدُّدَه وتكرُّره، فقوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ﴾، أيّ: على سبيل التَّجديد دائمًا[3]. ويُستفاد من ذلك تأكيد طلاقة قدرة الله تعالى مع عظيم رحمته وامتنانه سبحانه

تأكيد طلاقة قدرة الله تعالى مع عظيم منّته على خلقه إذ تتكرَّر منه النِّعم

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 304 - 305.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/366.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/293.

على خلقه، وأنَّه المستحقُّ للعبادة؛ لأنَّه الخالق المُدبِّر الَّذي تتكرَّر منه النِّعم، وتتجدَّد منه الآلاء، ويأتي منه الإنذار بعد الإنذار ليُطمِّع المؤمنين في ثوابه، ويُخوِّف الكافرين من عقابه.

بلاغة الجمع في ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾:

كيف لخائف من مخلوقٍ ألّا يخاف خالقَه؟ وأنَّى لِطامعٍ في رزق ألّا يعبد رازقَه؟

الخوف يعبِّر عن حالةٍ نفسيَّة تقابلها حالة الأمن، والطَّمع يُعبِّر عن توقُّع خير، ونكتة الجمع أن الخوف هو نتيجة لرؤية البرق، والطَّمع لما يأتي بعد البرق من الخير العميم، فالمقصود بالخوف هو الخوف المؤقَّت، فالجمع بين اللَّفظيْن لا باعتبار التَّضادِّ بل باعتبار الآثار، وفيه تعريض بالمشركين الَّذين استعجلوا العقوبات، فهذا البرق ترونه خائفين من أن تُصيبكم نارُه، وطامعين في أن تغيثكم أمطاره، فأنَّى بعد هذا الخوف من مخلوق من مخلوقات اللّه العظيم تستعجلون عذابه، وتجحدون هداه؟ وكيف بعد افتقاركم لرزقه ورحمته تكفرون به، وتعبدون سواه؟

سرُّ الفصل بين رؤية البرق وتسبيح الرَّعد:

تسبيحُ الرَّعدِ يستقلُّ بمفهومٍ تعبُّديٍّ يختلفُ عن إراءة البرقِ وإنشاءِ السَّحابِ

عند تأمُّل المواقع الإعرابيَّة لألفاظ ﴿ٱلْبَرْقَ﴾، و﴿ٱلسَّحَابَ﴾، و﴿ٱلرَّعْدُ﴾ في الآية الكريمة يظهر أنَّها وقعت معمولاتٍ لأفعال سبقتها؛ فأمّا البرق؛ فوقع مفعولًا به للفعل ﴿يُرِيكُمُ﴾؛ وفاعلُه هو اللّه جلَّ ذِكرُه.

وأمّا السَّحاب؛ فوقع مفعولًا به للفعل ﴿وَيُنشِئُ﴾؛ وفاعلُه هو اللّه ﷻ، وأمّا الرَّعد؛ فوقع فاعلًا للفعل ﴿وَيُسَبِّحُ﴾.

ومن هنا يبرز سرُّ الفصل بين رؤية البرق وتسبيح الرَّعد بإنشاء السَّحاب، حيث روعيت المناسبة بين المتعاطفات، فعطف البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ على مشاكِلتها في الإعراب، ثمَّ عطف عليها جملة ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ البرق يُدرَك بالبصر لقوله تعالى:

﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾، وكذلك السَّحابُ يُدرَك بالرُّؤية، أمّا الرَّعد؛ فيُدرَك بالسَّمع، ولو قُدِّر سماع تسبيح الملائكة؛ فسيُدرَكُ بالسَّمع كذلك، فروعيت هذه المناسبة في ترتيب المعطوفات.

كما أنَّ تسبيحَ الرَّعد فيه إشارةٌ إلى عبادةِ الرَّعد لله تعالى، مع ما عُطفَ عليه من تسبيح الملائكة، فيُؤخذُ من هذا أنَّ التَّسبيحَ قد تراخى عن فعل الإراءةِ والإنشاء؛ لما فيه من استقلالٍ في مفهومِ العبادةِ.

نكتة التَّعبير بلفظ: ﴿وَيُنشِئُ﴾:

الإشـــارةُ إلى تـدرُّجِ السَّحابِ في الإنشاءِ حتَّى يكتملَ

تدور معاني النُّشوءِ حول الارتفاع والسُّموّ، ويدلُّ على حدوث الشَّيْء من جنسه مبتدَأً صغيرًا آخذًا في الاستغلاظ، ومن هنا قيل: نَشَأ السَّحابُ؛ لحدوثه في الهواء، وارتفاعه، وتربيته شيئًا فشيئًا[1]. والإنشاء أيضًا: فعل الشَّيْء من غير سبب مولِّد[2].

ومن هنا تبرز نكتة إيثار التَّعبير - في هذا الموطن - بالإنشاء دون الخلق أو السَّوق أو التَّسيير؛ لدلالته على معاني الإيجاد، والتَّربية، والتَّكوين، والرَّفع.

وإذا كان الإنشاء يلتقي مع الخلق في معنى الإيجاد من عدم؛ فإنَّ الإنشاء فيه معنى الارتفاع والتَّربية شيئًا فشيئًا، وهذا يُناسب حالة السَّحاب الَّذي يخلقه الله في جوِّ السَّماء، ويبدأ صغيرًا، ثمَّ يأخذ في النُّموِّ شيئًا فشيئًا حتَّى يصبح ثقيلًا على ما اقتضته إرادة الله تعالى وحكمته.

وإنشاء السَّحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة الَّتي تتجمَّع سحابًا[3]، وفي هذا دلالة على أنَّ السَّحاب يعدمه الله تعالى، ثمَّ يخلقه جديدًا[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/294.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/206.

وعبَّر ﷻ بالنِّسبة للسَّحاب بأنَّه أنشأها، ولم يَقُلْ سيَّرها؛ لأنَّ الله تعالى يشير بذلك إلى رحمته بالنّاس[1].

أمّا التَّعبير بصيغة المضارع؛ فللدَّلالة على تجدُّد هذا الإنشاء وتكرُّره، كما يراه النّاس، ويلمسون أثره، وفي التجدُّد إشارةٌ لعظيم رحمة الله بعباده حتى الكافرين، فبرغم كفرهم لم يقطع عنهم رزقه، بل يُحدثه لهم كلَّ يوم بلطفه ورحمته ﷻ.

ثمَّ إنَّ التَّعبير بالمضارع فيه مناسبة ومشاكلة للأفعال الواردة في هذه الآية الكريمة قبله وبعده، حيث جاءت على هذا النَّحو: ﴿يُرِيكُمُ﴾، ﴿وَيُنشِئُ﴾، ﴿وَيُسَبِّحُ﴾، ﴿وَيُرْسِلُ﴾، ﴿فَيُصِيبُ﴾، ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾.

فائدة وصف السَّحاب بـ ﴿ٱلثِّقَالَ﴾:

عظيمُ صنيعِ الله ورحمتِه في حملِ الماءِ الثَّقيل لسَقْي الكافرِ الثَّقيل

الثِّقل كون الجسم أكثرَ كَمية أجزاءٍ من أمثاله، والسَّحاب يكون ثقيلًا بمقدار ما في خلاله من البخار، وعلامة ثِقله قربُه من الأرض وبطءُ تنقُّلِه بالرياح، والخفيف منه يُسمَّى جَهامًا[2].

ومن هنا تبرز فائدة وصف السَّحاب بقوله: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾، فإنَّ ذلك أنسب في سياق الامتنان، فهذا السَّحاب المُترع بالماء فوق رؤوسكم لم تحملوه، وإنَّما حمله الله تعالى بقدرته، وهو في السَّماء كالجبال في الأرض عِظَمًا وثِقلًا، لم تحرِّكوه، وإنَّما ساقه الله لكم بلطفه ورحمته، ولم تتكلَّفوا أن ترتقوا لتنالوا منه الماء، بل أمطره الله سبحانه بحكمته، ولم يكن ماؤه ملحًا، بل هو عذب فرات طهور يُسقيه الله ممّا خلق أنعامًا وأناسيَّ كثيرًا.

فالحاصل أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ في معنى: خير عميم، وفضل عظيم.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3913.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.

بلاغة المقابلة في الآية الكريمة:

مقابلةُ البشارة للنِّذارة، والتَّرغيب للتَّرهيب؛ إمعانٌ في الإعذار بعد بلوغ الإنذار

لمّا خوَّف الله تعالى العباد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾؛ أتبعه بما يشتمل على أمور دالَّة على قدرة الله تعالى وحكمته، تُشبه النِّعَم والإحسان من بعض الوجوه، وتُشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه[1].

أمّا الّذي يُشبه النِّعَم والإحسان من بعض الوجوه؛ فهو البرق والسَّحاب الثِّقال، وأمّا الّذي يشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه؛ فصوت الرَّعد الرَّهيب الرَّعيب، وإرسال الصَّواعق.

فالمقابَلَة تشابه مقابَلَة النِّذارة للبشارة، فالبرق والسَّحاب الثِّقال يمثِّلان البشارة، وقد قابلهما ذِكرُ الرَّعد والملائكة وإرسال الصَّواعق، وهذه تمثِّل النِّذارة.

براعة ذِكْر تسبيح الرَّعد في الآية الكريمة:

بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى في التَّدبير والإنعام، والتَّحذير والانتقام

جيء في ذِكْر البرق بلفظ الإراءة مُسندًا إلى الله العظيم ﷻ، فقال سبحانه: ﴿يُرِيكُمُ﴾، فأسند الإراءة إلى ذاته سبحانه؛ لأنَّه الخالق في الأبصار نورًا يحصل به الرُّؤية للخلائق[2].

أمّا الرَّعد؛ فقد جيء فيه بذِكْر التَّسبيح، خلافًا لما قد يُتوقَّع من ذِكْر الإسماع مثلًا لمُشاكلة الإراءة في البرق، وسرُّ ذلك أنَّ هذه الآيات المباركات جاءت لبيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى في التَّدبير والإنعام، والتَّحذير والانتقام.

فإنَّ هذا الرَّعد الَّذي تسمعون صوته عظيمًا ما هو إلّا مخلوق من مخلوقات الله تعالى[3] يُسبِّحه، ويُقدِّسه، ويُنزِّهه، ويحمده، فما لكم لا تؤمنون[4]؟

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/363.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/206.

(3) وذلك على كلا التَّأويلَيْن: أنَّه ملَك من الملائكة يسوق السَّحاب، وصوته تسبيحه، وهذا قول أكثر المفسّرين. والتَّأويل الثَّاني: أنَّه صوت اصطكاك السُّحب بعضها ببعض، ولا يخفى على المتأمّل والموفّق أن لا تعارُض بين العلّة المادّية، وبين العلّة الغيبية، فلكلٍّ من الغيب والشّهادة عالمه، وتأويلاته.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/113.

وفي تسبيحه دلالة على خضوعه لله، وتنزيهه سبحانه عن الشَّريك والعجز، كما يدلُّ صوت المُسبِّح وتحميدُه على انقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير[1]، فما لكم لا تذعنون؟

وإذا كنتم تخافون صوته الَّذي يكاد يقتلع القلوب، وهو صوت تسبيح وخضوع لله، فكيف إذا كان صوتَ غضبٍ صُبَّ عليكم؟ فبأيِّ شيء تطلبون العذاب وتستعجلون؟

فالحاصل أنَّه لمّا كان الرَّعد صوتًا عظيمًا؛ جعل ذِكره عِبرةً للسّامعين لدلالة الرَّعد بلوازم عقليَّة على أنَّ الله مُنزَّه عمّا يقوله المشركون من ادِّعاء الشُّركاء، وكان شأنُ تلك الدَّلالة أن تبعث النّاظر فيها على تنزيه الله عن الشَّريك؛ لمّا كان ذلك كذلك؛ جُعل صوتُ الرَّعد دليلًا على تنزيه الله تعالى[2].

بلاغةُ الإسنادِ في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾:

في هذه الجملة الكريمة أُسنِد التَّسبيح إلى الرَّعد، فإنْ كان ممّا يصحُّ منه التَّسبيح؛ فهو إسناد حقيقيٌّ، وإن كان ممّا لا يصحُّ منه؛ فهو إسنادٌ مجازيٌّ[3].

خضوعُ الرَّعدِ مُسبِّحًا لله حُجَّةٌ على المشركين في إشراكِهم بالله

وبناءً على ذلك ففي الرَّعد قولان:

أحدهما: أنَّه ليس بملَك؛ لأنَّه عطَف عليه الملائكة، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ والمعطوف عليه مغاير للمعطوف.

والثّاني: لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة، وإنَّما أفرده بالذِّكر تشريفًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: 7][4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/364.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 11/275.

فعلى القول بالإسناد المجازيّ يكون توجيه المعنى: أنَّ الرَّعد ذاته يكون في حال تسبيح الله تعالى وحدَه؛ لأنَّ هذا الصَّوت المزعج الرَّهيب المفزع يكون خاضعًا لله تعالى، دالًّا على توحيده سبحانه، وعلى كمال سلطانه، فكلُّ شيء يُسبِّح بحمده، وكلُّ الكون يخضع لله تعالى مُسبِّحًا بحمده، وهي تدلُّ على الباعث على هذا التَّسبيح، وهو حمدُه على نعمة إيجاده، وكمال خضوعه[1].

ومن هنا تبرز بلاغة المجاز؛ فإذا كان الرَّعد - على جلاله وسطوته وشدَّة وطأته - يخضع لجلال الله تعالى وعظمته مُسبِّحًا حامدًا، فما للمشركين لا يؤمنون؟

وقيل: المضاف محذوف، أيْ: يُسبِّح سامعو الرَّعدِ من العباد الرّاجين للمطر حامدين له[2].

فنُّ الاحتباك في الآية الكريمة:

تناسُبُ ذِكْرِ الإراءةِ مع البرق، والتَّسبيح مع الصَّوت نسيجُ الاحتباكِ

في هذه الآية من المُحسِّنات البديعيَّة ما يُسمَّى بالاحتباك بين قوله: ﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾، وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ﴾، حيث حذف التَّسبيح من الطَّرف الأوَّل لذِكْر نظيره في الطَّرف الثّاني، وذكر الإراءة في الطَّرف الأوَّل لحذف نظيرها من الطَّرَف الثّاني، فتقدير الاحتباك: يُريكم البرق مُسبِّحًا، ويُسمِعكم الرَّعد مُسبِّحًا، وفي هذا من البهاء والرَّونق والبلاغة ما فيه، فقد أدَّى المعنى بأوجز لفظ وأخصر عبارة، وأثار الذِّهن لاستنباط ما حُذِف بدلالة ما ذُكِر، وهو من إبداعات القرآن وعناصر إعجازه.

سرُّ تعلُّق صفة الحمد بتسبيح الرَّعد:

تستوجبُ النِّعمُ شكرَ المنعِم بها على الوجه اللّائق به تقديسًا وتنزيهًا

المُراد بتسبيح الرَّعد: تنزيهه لله تعالى عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وقد اقترنت صفة التَّسبيح بحمد الله تعالى بطريق

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3914.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/147.

المُلابسة، أيْ: ينزِّه الرَّعدُ اللّه تنزيهًا ملابسًا لحمده سبحانه من حيث إنَّه دالٌّ على اقتراب نزول الغيث، وهو نعمة تستوجب الحمد[1]، وفي هذا دلالة على فضله جلَّ شأنه ورحمته بحمد الحامد لما فيهما من الدَّلالة على صفات الكمال[2]، فالتَّنزيه دعوى دليلُها حمدُ اللّه تعالى.

موقع جملة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾:

البرقُ والسَّحابُ والرَّعد تُشابِه الملائكةَ في الوظيفةِ والإنذار

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطفٌ على الرَّعد، أيْ: وتسبِّح الملائكة من خيفته، أيْ: من خوف اللّه ﷻ[3]، ولهذه الجملةِ موقعٌ أخّاذ؛ إذ ذكَر الملائكة في سياق ذِكر البرق والسَّحابِ والرَّعد، وذِكرُ الملائكةِ دليلٌ على عظمةِ المخلوقاتِ المذكورةِ قبلها، وأنَّها تقومُ بوظيفتِها في هذه الحياةِ عابدةً مُسبِّحةً للّه تعالى، فإيرادُ الملائكةِ مُشعرٌ بأنَّ البرقَ والسَّحابَ والرَّعد تقتربُ من وظيفةِ الملائكة في التَّسبيح والتَّنزيه، وهي كذلك آيةٌ أقامَها الحقُّ للإنذارِ والتَّبشير.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾:

حقُّ العظيم أن يُخاف عقابُه، وأن يُعظَّم جنابُه

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ للتَّعليل، أيْ: يُنزّهون اللّه لأجل الخوف منه؛ أي: الخوف ممّا لا يرضى به، وهو التَّقصير في تنزيهه، وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التَّعريض بالمشركين، أيْ: إنَّ التَّنزيه الَّذي دلَّت عليه آيات الجوّ يقوم به الملائكة، فاللّه غنيٌّ عن تنزيهكم إيّاه، كقوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزُّمر: 7][4].

بلاغة الاستعارة في ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾:

كلُّ ما في الملأ الأعلى يُطيع اللّه العليَّ الأعلى

في قوله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ استعارة بديعة؛ حيث شبَّهت الآية الصَّواعق برُسل تعي عن ربِّها ما بلَّغها، ثمَّ تنقَضُّ على أعدائه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/113.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.

مهلِكةً منتقمة، فحذف المُشبَّه به، وجاء بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنيَّة.

وقد أفادت هذه الاستعارة بيان طاعة الصَّواعقِ أمرَ ربِّها ﷻ، وأنَّها لا تعصيه، وأنَّها لا تحنو على أعدائه.

غرض جمع الصَّواعق وتعريفها باللّام:

التَّكثير مناسبٌ للتَّهديد والتَّذكير ملائمٌ للوعيد

الصَّواعق جمع صاعقة، وهي العذاب النّازل من البرق، فيحترق مَن تصيبه.

وقيل: هي الصَّوت الشَّديد النّازل من الجوِّ، ثمَّ يكون فيه نارٌ أو عذاب أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء الثَّلاثة تنشأ منها[1].

والتَّعريف فيها للعهد؛ إذ المخاطَبون على علم بها وبآثارها، فناسب أن تكون زجرًا لهم، واقتصر في العبرة بالصَّواعق على الإنذار بها؛ لأنَّها لا نعمة فيها؛ لأنَّ النِّعمة حاصلة بالسَّحاب، وأمّا الرَّعد؛ فآلةٌ من آلات التَّخويف والإنذار، وكان العرب يخافون الصَّواعق[2].

وفي جمعها دلالة على التَّكثير والتَّعظيم، واستحضار الذِّهن لصورة نزولها من السَّماء على قدر المُكذِّبين المعاندين، فلكلِّ واحد منهم صاعقة محرقة، وفي ذلك من الرَّهبة والخشية ما يأخذ بمجامع القلب.

غرض الإخبار في قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾:

التَّلويحُ بعصا التَّأديبِ زاجرٌ لِمَن استقرَّ في قلبِه رحى التَّأنيبِ

لقد حقَّق هذا الإخبار غرض الرَّد على مزاعم الكافرين الَّذين حسبوا أن تأخير نزول العذاب بهم مع كفرهم وتكذيبهم إنَّما يرجع لأمرَيْن: إمّا لكذب المتوعِّد أو لعجزه، تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/105.

فجاءت هذه الآية لتبيّن أنَّ من آيات الله الصَّواعق، ولم يكن المخاطَبون يجهلون شأنها ولا بليغ أثرها فيمَن تصيبه، فوجَّههم خطاب القرآن إلى أنَّ إرسال الصَّواعق الَّتي رأيتموها، ولمستم ما أحدثته من دمار إنَّما كان بمشيئة الله وقُدرته وإرادته، وأنَّ صرْفها عنكم - مع استعجالكم بها - إنَّما هو لأمر أراده الله سبحانه، فلا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

فكما قدر سبحانه على إرسالها على غيركم، فهو قادر على أن يرسلها عليكم، وفي هذا تهديد وإنذار وتخويف بقرب نزول السَّيِّئات لِمَن طلبها.

فائدة التَّعبير بقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾:

إكسابُ اللَّفظِ العمومَ وتوجيه قلوبِ العبادِ إلى مشيئة الرَّحمن

في التَّعبير بقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فائدة عظيمة، وهي بيان أنَّ الله ﷻ لا ينزل العذاب باقتراح مقترح، ولا يُصيب بالعقوبة مَن رامها متحديا إن لم يشأ الله تعالى ذلك، ولا يجعل التَّنكيل بيد أحدٍ يوجِّهه كيف شاء، بل كلُّ شيء تابع لمشيئة الله سبحانه، فلا يكون إلّا ما يريد.

ولو كان النَّظم (فيُصيب بها الكافرين)؛ فلربَّما خرج الكافرون صائحين على سبيل التَّعنُّت: إنّا بما أُرسِلتَ به كافرون، فأين العذاب الَّذي تتوعَّدنا به، وزعمت أنَّه سيصيبنا؟ كما هي عادتهم، لكنَّه آثر التَّنويعَ في الخطابِ، فما لم ينفع معهم في سياقٍ، ينفع في سياقٍ آخر.

براعة جملة الحال: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾:

مجادلةُ المشركين تدعو إلى العجب وإصرارُهم عليها قد يُنزل الغضب

جملة: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال؛ لأنَّه من متمِّمات التَّعجُّب الَّذي في قوله ﷻ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرّعد: 5] ... إلى آخره.

فضمائر الغيبة كلُّها عائدة إلى الكفّار الَّذين تقدَّم ذِكْرهم في صدر السّورة بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [الرّعد: 1]، وقوله سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الرّعد: 5] وقوله

ﷻ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ﴾، وقد أُعيدَ الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين، فتمحَّض تخويفُ الكافرين[1].

ومعنى الآية: يرسل الله الصَّواعق، فيُصيب بها مَن يشاء في حال جداله في الله[2]. وفي هذا إرعاب للمشركين المجادلين في الله، الجاحدين لباهر الآيات الدّالَّة على وحدانيَّة الله وعظمته؛ فإنَّ تخصيص إرسال الصَّواعق على المجادلين في حال جدالهم يملأ قلوبهم رعبًا، ويصدُّ كثيرًا منهم عن الجدال، وكأنَّه قال لهم: إن لم تؤمنوا؛ فلا تجادلوا حتَّى لا تصدّوا غيركم عن الإيمان، وإن لم تفعلوا؛ فاحذروا أن تصيبكم صاعقة من عذاب الله تعالى.

نكتة التقديم في ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾:

في هذه الجملة الحاليَّة قُدِّمَ فيها المُسنَد إليه على المُسنَد الفعليّ لتقوية الإسناد فيها وتأكيده؛ لأنَّ مقتضى الحال يستدعي التَّقوية والتَّأكيد.

مقتضى الحال يستدعي التَّقوية والتَّأكيد

والسِّرُّ في أنَّ تقديم المُسند إليه هنا على المُسند الفعليّ يُفيد تقوية الحكم وتوكيده هو تكرار الإسناد؛ فقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ﴾ وقع الفعل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ خبرًا عن المسند إليه ﴿وَهُمۡ﴾، وهذا الفعل مُسند في الوقت نفسه إلى الفاعل، وهو ضمير الجملة العائد على المبتدأ، فكأنَّ الحكم هنا قد ذُكِرَ مرَّتيْن: مرَّةً عند إسناد الفعل إلى ذات المسند إليه، ومرَّةً عند إسناده إلى ضميره، وتكرار الإسناد على هذا النَّحو يفيد تقوية الحُكم وتوكيده[3].

ويُضاف إلى ذلك أنَّ العدول عن الفعليَّة إلى الاسميَّة وطرح رعاية التَّناسب جاء للدَّلالة على أنَّهم ما ازدادوا بعد الآيات إلا عنادًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/105.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/24.
(3) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125 - 126.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/116.

فضلًا عن أنَّ هذا التَّقديم أفاد قصر المجادلة على المعنيين بقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ﴾، فكأنَّه لا يُجادِل أحدٌ في شأن الله إلّا هؤلاء الَّذين رأوا نعم الله في البرق والمطر، ورأوا إنذاره في الرَّعد والصَّواعق، وفي هذا ذمٌّ لهم لسوء ما قابلوا به حِلم الله بهم، ولكفرانهم نِعمَه السّابغة عليهم.

سرُّ التَّعبير بالمجادلة في هذا السّياق:

الجدال العقيم وصــفٌ لـحـال صاحبه في إنكار الــواضــحــات وتكذيب البيِّنات

تدور معاني الجدال حول الشِّدَّة، والمنازعة، والخصومة، والمغالبة[1].

وفي هذا السياق نجد أنَّه بعد أن بيَّن الله سبحانه دلائلَ العلم بقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، ودلائلَ كمال القدرة في هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾، يعني: أنَّ الكفار مع ظهور هذه الدَّلائل يجادلون في الله[2].

أيْ: يجادلون في قدرة الله على البعث وإعادة الخلق بقولهم: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]، ويجادلون في وحدانيَّته باتّخاذ الشُّركاء والأنداد، ونسبة التَّوالد إليه ﷻ بقولهم: الملائكة بنات الله، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

والمعنى: أنَّه ﷺ متَّصف بهذه الأوصاف من العظمة والخَلق والقدرة وغيرها، ومع ذلك رتَّبوا عليها غير مقتضاها مِن المجادلة فيه وفي أوصافه تعالى، وكان مقتضاها التَّسليم لما جاءت به الأنبياء[3].

ولمّا كان أصل الجدال يُعبِّر عن استحكام الشَّيء في استرسالٍ يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام[4]؛ كان أنسب للتَّعبير عن موقف الكافرين إزاء آيات الله.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدل).
(2) ابن عادل، اللُّباب: 11/276.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/366.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).

فهم - مع علمهم بالحق ومعاينتهم الآيات - يسترسلون في المنازعة بقصد هزيمة النَّبيّ ﷺ، ويخاصمونه ويراجعونه الكلام، فأقلُّ محاورةٍ هي مُتَّصفة بالمجادلةِ؛ بسبب وضوحِ الأدلَّة والبراهين الَّتي يُجادِل فيها المشركون.

غرض الحذف في قوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾:

لم تذكر الآية مَن هم المُجادَلون، ولكن فُهِم أنَّ مفعول ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ هو النَّبيُّ ﷺ والمسلمون، فالتَّقدير: يجادلونك، أو: يجادلونكم، كقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: 6][1].

لم يقتصر الكافرون على إنكار النُّبوَّة بل جاوزوا ذلك إلى إنكار الألوهيَّة

وفي هذا تسلية للنَّبيّ ﷺ، فإنَّهم لم يقتصروا على إنكار نُبوَّته ﷺ، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار الألوهيَّة[2].

فائدة استعمال حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

أفاد حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ - أنَّ الكافرين المُعاندين جعلوا الله ﷻ ظرفًا لجدالهم، فكأنَّهم لم يجادلوا في شيء غيره، فإذا كُلِّموا في غير الله تعالى؛ لم يعبؤوا بموافقة أو إباء، أمّا إذا دُعوا إلى الله ﷻ؛ فإنَّهم يأبون، ويجادلون، ويعاندون.

المُكذِّبون ممتلئون كفرًا، مُنغمسون في الجدال، لا يُعظِّمون الله ذا الجلال

فما جدالهم في آيات الله العظيم ورسوله الكريم ﷺ إلّا جدالًا في ذاته ﷻ، وهذا يدلُّ على شدَّة كفر القوم وشدَّة عنادهم وجحودهم، فكأنَّهم لفرط عتوّهم منغمسون في الجدال، متضمِّخون بأوحال الضَّلال!.

براعة المجاز بالحذف في ذِكْر لفظ الجلالة:

تهويل جدال المشركين، فما مِن شيء يتعلَّق بذات الله سبحانه إلّا جادلوا فيه

المجادلة إنَّما تكون في الشُّؤون والأحوال، فتعليق اسم الجلالة المجرور بفعل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/105.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/134.

– يَتَعَيَّن أن يكون على تقدير مضاف تدلُّ عليه القرينة، أيْ: في توحيد الله تعالى، أو في قدرته سبحانه على البعث[1]، فيُكذِّبون ما يصفه الصّادق به من كمال العلم والقدرة والتَّفرُّد بالألوهيَّة وإعادة النّاس ومجازاتهم، فالمُراد بالمجادلة فيه تعالى: المجادلةُ في شأنه سبحانه وما أخبر به عنه جلَّ شأنه[2]. لكن حذف المتعلِّق لتهويل جدالهم، ولتذهب النَّفس في تصوُّره كلَّ مذهب، وتستشنع جدال المعاندين كلَّ مستشنَع.

بلاغة ذِكر الحال بعد الحال السابقة:

الله هو القويُّ العزيز، لا يغالبه أحدٌ في الوجود وهو تعالى أقوى من كلِّ موجود

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ هذه الجملة حال من الجلالة الكريمة، والمِحال: الجدال، وفيه على هذا مقابلة معنويَّة[3]، وذلك أنَّه لمّا أخبر عنهم أنَّهم يجادلون في الله أخبر أنَّه أشدُّ جدالًا منهم[4]، حيث يأتي أعداءه بما يريد من إنزال العذاب بهم من حيث لا يحتسبون[5].

ويجوز أن يكون المعنى: شديد العقاب، ويكون مثلًا في القوَّة والقدرة، كما جاء في الحديث: «ساعِدُ الله أشَدُّ مِنْ ساعِدِكَ، وموسَى الله أحَدُّ مِنْ موساك»[6].

فالحاصل أنَّ ذِكر هذه الحال – بعد جملة الحال السّابقة عليها: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ – قد أفاد تأكيد أنَّ الله تعالى لا يُغالبه في الوجود أحدٌ، فهو أقوى من كلِّ الوجود، ومع ذلك يجعلون ذاته الكريمة موضع جدال.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/106.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/115.
(3) ابن عادل، اللّباب: 11/277.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 3/10.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/295.
(6) أخرجه أحمَدُ، المسند، الحديث رقم: (15888)، والنَّسَائيُّ في السُّنن الكبرى، الحديث رقم: (11155)، وابن حِبَّان في صحيحه، الحديث رقم: (5615) واللَّفظُ له.

ولكنَّه الضَّلال الَّذي أغشى العقول، فصرفها عن إدراك الحقِّ المبين الواضح، الَّذي قامت فيه الدَّلائل على قوَّة الله القاهرة، فجادَلوا في الله بأوهام توهَّموها[1].

وهذا يدلُّ على المفارقة العجيبة بين جدالهم بالباطل، وبين قوَّة الله ذي الجلال، ويشير كذلك إلى بُعد غور القاع الَّتي انسحقوا فيها من عدم معرفتهم بالله تعالى، وعدم تقديرهم إيّاه تعالى حقَّ قدره؛ إذ خافوا من مخلوقاته، ولم يخافوه، واستعجلوا بعذاب لم يطيقوه.

غرض التقديم في ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾:

تخصيص الحكم وبيان المفارقة بين الحالَيْن، والتَّعريض بحماقة المشركين

في تقديم المُسنَد إليه ﴿وَهُوَ﴾ - العائد على الله ﷻ - على المُسنَد ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ تقوية للحكم وتقريره، وقد حسُن أن تُختتم بها الآية الكريمة لبيان المفارقة بين الحالَيْن، والتَّعريض بحماقة المشركين؛ إذ يجادلون في الله تعالى، ويجحدون كلَّ آيات وحدانيَّته، ويحسبون أنَّهم على شيء، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، ومكر بهم، وجعل تدبيرهم مردودًا عليهم.

ويُشعر السّياقُ بالحصرِ، فهذا الوصف لا يليق بالإطلاقِ إلّا لله تعالى.

سرُّ إيثار ذِكر الشدَّة:

تعضيد المماحلة بالشِّدَّة دلالةٌ على مُطلق القدرة، وقوَّة الأخذ بالعقوبة

تدور معاني الشِّدَّة حول القوَّة والصَّلابة[2]. أمّا المِحال؛ فهو فِعال من المَحْل، وهو الشِّدَّة، والكَيْد، ورَوم الأمر بالحيل، والقدرةُ، والعذاب، والعداوة، والمعاداة[3]. ولفظ فِعال يقع على المجازاة والمقابلة، فكأنَّ المعنى: أنَّه تعالى شديد المغالبة[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3915.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شدد).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/487.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/24.

ومن هنا يبرز سِرُّ إيثار التَّعبير بالشِّدَّة مع المماحلة، فلم يَقُلْ: (وهو قوي المحال)؛ فلمّا كانت المماحلة تدور معانيها حول الشِّدَّة، والقدرة، والعذاب، والأخذ بالعقوبة؛ كان الأنسب أن يُجاء معها بلفظ ﴿شَدِيدُ﴾ للمشاكلة.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ العذاب قد وُصف في القرآن بالشِّدَّة، والعِظَم، والكِبَر، لكنَّ المعذِّب لم يتَّصف بالعِظَم أو الكِبَر حال العذاب، فلم يأتِ في القرآن: عظيم العذاب، ولا: كبير العذاب، بينما جاء: ﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۝١٦٥﴾ [البقرة: 165]، فناسب أن يكون شديد المحال كشديد العذاب؛ لما أنَّ شديد المحال سيُعذب المجادلين إن ماتوا على حالِهم في الشِّرك والعنادِ.

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿ٱلْمِحَالِ﴾:

المِحال: بكسر الميم يحتمل هنا معنيَيْن؛ لأنَّه إن كانت الميم فيه أصليَّة؛ فهو فِعالٌ بمعنى: الكيد، وفعله: مَحَلَ، ومنه قولهم: تَمَحَّلَ؛ إذا تَحَيَّل، جعل جدالهم في الله جدال كيد؛ لأنَّهم يُبرزونه في صورة الاستفهام في نحو قولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: 78]، فقوبل بـ ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ على طريقة المشاكلة؛ أيْ: وهو شديد المِحال لا يغلبونه، ونظيره: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]. وقيل: هو مَن ماحَل عن أمره، أيْ: جادَل، والمعنى: وهو شديد المجادلة، أيْ: قويُّ الحُجَّة، وذلك على غرار قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان: 33][1].

الله سبحانه يُملي للكافرين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون

وقد زاد من جمال التَّعبير بهذه المفردة دون غيرها مراعاة الفواصل، وموافقة رؤوس الآي: ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾، ﴿وَالٍ﴾، ﴿ٱلْقِفَالَ﴾، ﴿ٱلْمِحَالِ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/106.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الخوف والخشية:

الخشية خوف خـــاصٌّ، وهـي أشدُّ من الخوف

الفرق بين الخوف والخشية: أنَّ الخوف يتعلَّق بالمكروه وبترك المكروه، تقول: خفتُ زيدًا، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النّحل: 50]، وتقول: خفتُ المرض، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]، والخشية تتعلَّق بمنزل المكروه، ولا يُسمّى الخوف من نفس المكروه خشية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21].

فإن قيل: أليس قد قال: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94]؟ قلنا: إنَّه خشي القول المؤدّي إلى الفُرقة، والمُؤدّي إلى الشَّيء بمنزلة مَن يفعله، وقال بعض العلماء: يُقال: خشيتُ زيدًا، ولا يُقال: خشيتُ ذهاب زيد، فإن قيل ذلك؛ فليس على الأصل، ولكن على وضع الخشية مكان الخوف، وقد يوضع الشَّيء مكان الشَّيء؛ إذا قرب منه[1].

والخشية: أشدُّ من الخَوْف؛ لأنَّها مَأْخوذَة من قَوْلهم: شَجَرَة خاشية، أيْ: يابسة[2]. وبين خوف اللّه وخشيته فرق، وهو أنَّ الخوف تألُّم النَّفس من العقاب المتوقَّع بسبب ارتكاب المنهيّات، والتَّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جدًّا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلا للقليل، والخشية: حالة تحصل عند الشُّعور بعظمة الخالق وهيبته وخوف الحَجْب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلا لِمَن اطَّلع على حال الكبرياء وذاق لذَّة القرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، فالخشية: خوفٌ خاصٌّ، وقد يُطلقون عليها: الخوف.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 428.

ويُؤيّد هذا الفرق أيضًا قوله تعالى يصف المؤمنين: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21] حيث ذَكَر الخشية في جانبه سبحانه، والخوف في جانب الحساب[1]. ونكتته عدم التَّسوية بين ذِكْر الخوف من الله والحساب في سياق واحد.

الخَلْق والإنشاء:

الخَلقُ الإحداث والإيجاد، والإنشاء الإحداث والإيجاد مع رفعٍ

النّون والشّين والهمزة أصلٌ صحيح يدلُّ على ارتفاع في شيء وسموٍّ، وأنشأ الله السَّحابَ: رَفعَه[2]. والإنشاء: إيجادُ الشَّيءِ وتربيتُه، وهو الإحداث حالًا بعد حال من غير احتذاء على مثال[3]، والخَلْقُ أصله: التَّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أيْ: أبدعهما، بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117][4]. وكلُّ شيءٍ خلقه الله؛ فهو مبتدِئه على غير مثال سُبِق إليه.

فالإنشاء والخَلْق يحملان معنى الإحداث وإيجاد الشَّيء بعد أن لم يكن[5]، ولكن يزيد مع الإنشاء معنى الرَّفع.

المُجادلة والمِراء والمُماحلة:

المُجادلة: المُخاصمة والمُقاوحة على سبيل المغالبة، وهي مذمومة في الأشياء الظّاهرة غير المحتملة للجدال، كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4]، ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: 5]، تنبيهًا بأنَّ الجدال قد يكون بحقٍّ، وهو محمود ليظهر الحقُّ، كقوله تعالى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: 46][6].

المُجادلةُ مخاصمة قد تكون مذمومةً أو محمودة، والمِراءُ مخاصمةٌ مذمومة، والمُماحلةُ المُماكرة والمُكايدة والمُجادلة

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 218.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشأ).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 296.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/312.

والمِراء: طعنٌ في كلام الآخر لإظهار خللٍ فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الآخر[1].

والمماحلة: شِدّة المُماكرة والمُكايدة[2]. وهو يُماحل عن الإسلام، أيْ: يُماكر، ويُدافع، ويُجادل[3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (مري).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/519، والرّازيّ، الصّحاح، ص: 291.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (محل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»